الشخصية: تمظهرات الزيف والحقيقة

سامي عادل البدري

samialbedri@yahoo.com

في الوقت الذي اخط فيه سطور مقالتي هذه، اشاهد من على شاشة التلفاز كرنفال فينيسيا للأقنعة، وهذا الكرنفال تقليد ايطالي ترجع اصوله للقرن العاشر الميلادي، يقام كل سنة في شهر شباط، في مدينة فينيسيا، ويستمر لعشرة ايام تحت شعار: (الحياة مسرح، حان وقت ارتداء الأقنعة!).

وهكذا يرتدي الناس الأقنعة ويتعايشون مع بعضهم لأيام من غير أن يعرف أحدهم شيئاً عن ماضي الآخر.

لا أعلم لم نقلتني أجواء الكرنفال لعالمنا العربي، للعراق تحديداً، هكذا فجأة رحت أفتش عن نظائر احتفالية يظهر فيها القناع، ولكن دون جدوى، وأقصد هنا القناع المادي، ذاك الذي يصنعه صانع ماهر، لأغراض مختلفة، والذي رافق الإنسان منذ بدء الحضارة، والجميع يعلم ما الذي كانت تضعه الشخصيات في الدراما اليونانية على وجوهها. ولكن علينا أن لا ننسى أن الاحتفالات الجماعية هي بذاتها قليلة في حياة مجتمعاتنا العربية، وإن وجدت فتقتصر على احتفالات ذات طابع ديني.

ولكن لماذا يتم ارتداء الاقنعة أصلاً؟ أفضل مقاربة هذه التساؤلات في ضوء ما قيل عن تعريف (الشخصية) عربياً وغربياً. يقارن الدكتور علي كمال في واحد من كتبه بين جذر لفظ (الشخصية) في اللغة العربية، واللغات الأوربية، ويجد إن العرب يرجعون جذر لفظ (الشخصية) إلى مادة: (شخص، يشخص، شاخص) أي برز وظهر، بينما في اللغات الأوربية يتم اشتقاق مصطلح (Personality) من كلمة (persona) أي القناع، والتي تعني حرفياً (بواسطة الصوت)؛ على أساس من ان الممثل في الدراما اليونانية القديمة كان يوصل ما يريده بواسطة الصوت فقط، إذ ان القناع يحول دون ابراز تعابير الوجه.

ولو أخذنا هنا بعين الإعتبار النظريات التي ترى بأن اللغة والتفكير يعتمد إحدهما على الأخر، بل أن بعض النظريات تقول بأن اللغة هي التي تحدد الفكر بشكل كامل (مثل نظرية سابير– وورف على سبيل المثال)، فكيف سينسحب ذلك على فهمنا لموضوعة الشخصية؟ فهل سنرى مثلاً – نحن المتكلمون بالعربية – أن الشخصية هي ما يشخص بارزاً من الفرد، بينما

أن الاحتفالات الجماعية هي بذاتها قليلة في حياة مجتمعاتنا العربية، وإن وجدت فتقتصر على احتفالات ذات طابع ديني.

يقارن الدكتور علي كمال في واحد من كتبه بين جذر لفظ (الشخصية) في اللغة العربية، واللغات الأوربية، ويجد إن العرب يرجعون جذر لفظ (الشخصية) إلى مادة: (شخص، يشخص، شاخص) أي برز وظهر

في اللغات الأوربية يتم اشتقاق مصطلح (Personality) من كلمة (persona) أي القناع، والتي تعني حرفياً (بواسطة الصوت)؛

أن اللغة والتفكير يعتمد إحدهما على الأخر، بل أن بعض النظريات تقول بأن اللغة هي التي تحدد الفكر

يرى الأوربيون أنها ما يختفي خلف القناع؟ أم أن الأوربيين يرون أنها هي القناع نفسه؟

ويبرز من بين أطباء النفس الذين تأثروا بنظريات اللغة واعادوا صياغة التحليل النفسي وفقاً لها، الطبيب الفرنسي (جاك لاكان)، الذي كان يقول أن (الأنا الواقعية) بعيدة المنال، وقصد بذلك أننا دائماً ما نكون متقمصين لشخصيات أخرى في سعينا للنمو، فنحن منذ طفولتنا نحاكي الآخرين (الأب، الأخ، الخال،...) علنا نصير تلك (الأنا المثالية) التي يرغب بها الجميع، وفي سعينا إلى ذاك الهدف سنشرع بالتمثيل والمحاكاة والتقليد، بمعنى آخر أننا سنرتدي أقنعة متعددة. واعتبر(لاكان) أن مهمة السلامة النفسية تتمثل في أن يجد المرء (الذات) ويضعها بدل (الأنا).

يبدو أن الأقنعة تحررنا من ضرورة لعب الدور الذي يتوقعه الاخرون منا، فحين نضع قناعاً مادياً حقيقياً على وجوهنا، فذلك يسهل لنا إسقاط تلك الأقنعة النفسية المزيفة التي نرتديها، فنصير ساعتها أقرب لـــذواتنا الحقيقية، وهو ما يبدو هنا أشبه بالمفارقة.

وبالعودة إلى كرنفال الاقنعة الفينيسي سنجد المؤرخين يختلفون بصدد الفكرة الرئيسة التي نشأ منها، غير انهم يعتقدون أن أحد أهم أهدافه الأساسية تتمثل في الرغبة بالقضاء – ولو مؤقتاً – على ما تعودناه من القيود الاجتماعية، فارتداء الأقنعة والأزياء التنكرية يسمح للفرد بالتمتع بحرية غير مسبوقة فيتمكن من تجاوز بعض القوانين الاجتماعية، من غير ان يتم التعرف عليه.

ومن الأهداف الأخرى هو القضاء على الأحكام المسبقة، فأنت لا تعرف إن كان هذا الشخص المقنع أمامك فيلسوفاً أم منحطاً، طهرانياً أم داعراً، أميراً أم شحاذاً، رجلاً أم امرأة فتتعامل معه دون أي حكم مسبق. ذلك أنه في المدن، وفي المدن الكبيرة تحديداً، تظهر تراتبيات طبقية صارمة في أغلب الأحيان، ومدينة فينيسيا ليست مستثناة من ذلك، فقد كانت تراعي حدود الطبقية بامتياز. وكالعادة فإن المظاهر تلعب دوراً مهماً في مدن كهذه، وبرغم عدم علمنا اليوم بأصل هذا الكرنفال على نحو دقيق نجد أن له أثراً نفسياً ايجابياً على المجتمع، ففكرته تجعل الفرد يختار المظهر الذي يريده، ولو لعشرة أيام فقط، ليلعب الدور الذي يبتغيه، في سلوك تظهر فيه الكثير من ملامح السخرية المقصودة الموجهة ضد مظاهر زائلة وتصنيفات اجتماعية قهرية، وظلم تاريخي. وبهذا صارت للقناع وظيفة معكوسة، إذ ساعد على ان نكون أكثر حقيقية، وربما إن هذا الدور التمثيلي المؤقت الذي يلعبه أولئك المحتفلون في أيام الكرنفال هو أكثر اصالة من الدور الذي يمارسونه يومياً في مسرح الحياة.

وقريب من ذلك، ما تقوله دراسات علم النفس الاجتماعي من ان الأقنعة تجعلنا أكثر قابلية على خرق القوانين الاجتماعية، بل ان الدراسات تجد أهمية أيضاً في أشياء بسيطة لا يبدو أن لها أثراً نفسياً ملحوظاً للوهلة الأولى، فالنظارات الشمسية مثلاً حين تخفي العينين تقوم بلعب دور مقارب لدور القناع.

بشكل كامل

هل سنرى مثلاً – نحن المتكلمون بالعربية – أن الشخصية هي ما يشخص بارزاً من الفرد، بينما يرى الأوربيون أنها ما يختفي خلف القناع؟

أننا دائماً ما نكون متقمصين لشخصيات أخرى في سعينا للنمو، فنحن منذ طفولتنا نحاكي الآخرين (الأب، الأخ، الخال،...) علنا نصير تلك (الأنا المثالية) التي يرغب بها الجميع

اعتبر(لاكان) أن مهمة السلامة النفسية تتمثل في أن يجد المرء (الذات) ويضعها بدل (الأنا).

أن الأقنعة تحررنا من ضرورة لعب الدور الذي يتوقعه الاخرون منا

حين نضع قناعاً مادياً حقيقياً على وجوهنا، فذلك يسهل لنا إسقاط تلك الأقنعة النفسية المزيفة التي نرتديها، فنصير ساعتها أقرب لـــذواتنا الحقيقية

هل تذكرون فلم (القناع) الذي ظهر عام 1994 ومثل فيه دور البطولة (جيم كاري)؟ لماذا كان حين يرتدي القناع تصير لديه قدرات خارقة؟ لقد ارجع كتاب السيناريو ذلك القناع للإله (لوكي) وهو أحد الآلهة القدماء لسكان اسكندنافيا، وتاريخياً ليس من الثابت إن الاسكندنافيين كانوا يؤمنون بأن للإله (لوكي) قناعاً ذا قدرات خارقة، لكن لماذا يا ترى تخيل كتاب السناريو تلك القدرات؟ وماذا عن قناع (زورو) مثلاً؟ وماذا عن أقنعة الأفارقة الأوائل، والهنود الحمر التي استخدموها في طقوسهم؟ ما أكثر الأقنعة!

ارتداء الأقنعة والأزياء التنكرية يسمح للفرد بالتمتع بحرية غير مسبوقة فيتمكن من تجاوز بعض القوانين الاجتماعية، من غير ان يتم التعرف عليه

دعونا نتكلم عن شخص اهتم بالأقنعة بشكل خاص، وهو الرسام البلجيكي جيمس إنسور الذي لقبه البعض بـــ(رسام الأقنعة)، من المؤكد انه تأثر بمتجر والديه الذي كانا يبيعان فيه الأقنعة المستخدمة في مهرجان مماثل في بلدتهم البلجيكية. فقد يكون اهتمام (إنسور) برسم الأقنعة نابع من مجرد رغبته في إبراز تقليد من تقاليد بلدته، ولكن لو تأملنا أيضاً لوحات انسور فسنجد ان مواضيعها الأساسية هي الموت (مثلما يتضح في: الهياكل العظمية، الجثث المقطعة) والمواضيع الدينية (التركيز على إبراز القديسين والسيد المسيح عليه السلام)، هذا كله مضافٌ للأقنعة. ويبدو أن من اعتاد على التأمل في تفاصيل موضوعة الموت، خصوصاً والمواضيع الدينية على نحو عام، فهو بالتأكيد سيتأمل في معنى وجوده ويشرع بالتفكير بالأسئلة الوجودية الكبرى، فلماذا الاهتمام هنا بالأقنعة؟

ربما إن هذا الدور التمثيلي المؤقت الذي يلعبه أولئك المحتفلون في أيام الكرنفال هو أكثر اصالة من الدور الذي يمارسونه يومياً في مسرح الحياة.

فيما نعتقد ان اهتمام (انسور) بالأقنعة لا يأتي من كونها ترمز للدور المسرحي الذي نلعبه في حياتنا فحسب، ولكن من رغبة حقيقية لديه للسخرية من أدوارنا المزيفة، وربما هو يدعونا بأعماله لنكون أكثر أصالة في وجودنا. وربما لهذا السبب تحديداً ظهرت الأقنعة في أغلب أعماله، ونشير هنا تحديداً إلى لوحته الأكثر شهرة (السيد المسيح يدخل مدينة بروكسل). فالسخرية هنا واضحة منذ العنوان؛ ذلك ان السيد المسيح لم يدخل بروكسل أصلاً، ومن يطالع اللوحة للوهلة الأولى سيضيع بين فوضى الأقنعة، وسيتعين عليه التأمل طويلاً كي يتعرف على شخصية السيد المسيح بالمساحة الضيقة التي أعطاها له بمقابل شخصيات ثانوية (جنود، جنرالات، كهنة، مهرجون، نكرات)، وهناك بالتأكيد شخصيات ترتدي الاقنعة تحتل مكان الصدارة من فضاء اللوحة.

النظارات الشمسية مثلاً حين تخفي العينين تقوم بلعب دور مقارب لدور القناع

ان اهتمام (انسور) بالأقنعة لا يأتي من كونها ترمز للدور المسرحي الذي نلعبه في حياتنا فحسب، ولكن من رغبة حقيقية لديه للسخرية من أدوارنا المزيفة

وما شأننا نحن العراقيون بفينيسيا وكرنفالها السعيد؟ بجاك لاكان الفرنسي ونظريته حول الذات والأنا؟ بانسور البلجيكي واقنعته؟ أكثر ما اخشاه ان تبدو مقالتي هذه شبيهة بالكرنفال. ربما سيكون من الملائم على نحو أكثر فائدة استحضار واحدة من أكثر المحاضرات المطبوعة علمية وشهرة في مقاربة الذات العراقية، وهي محاضرة الدكتور علي الوردي الشهيرة (شخصية الفرد العراقي) التي أوضح فيها كيف ان الفرد العراقي يعاني من ازدواجية في المعايير، فلديه مرجعيتان يتمرجح بينهما: البداوة والحضارة. لكن هل يمكن الحديث هنا عن اقنعة؟ واين يتجلى القناع، في البداوة أم في الحضارة؟ أم في كليهما معا؟

ان الفرد العراقي يعاني من ازدواجية في المعايير، فلديه مرجعيتان يتمرجح بينهما: البداوة والحضارة

هل يمكن الحديث هنا عن اقنعة؟ واين يتجلى القناع، في البداوة أم في الحضارة؟ أم في كليهما معا؟

في الوقت الذي نعتقد فيه أن د. علي الوردي شخص بذكائه المعتاد إحدى أشد مآزق الفرد العراقي حراجة، والتي ما زلنا نعاني منها ليومنا هذا، فإننا نؤكد أن ازدواجية الأدوار التي نلعبها في مسرح الحياة هذه هي مشكلة انسانية أزلية عامة، وهي تحتاج لمقاربة علمية وأكاديمية أكثر عمقاً، مقاربة تنزل إلى الواقع اليومي، وعليها أيضاً أن تستخدم مرتكزات علم النفس، لا علم الاجتماع فحسب. وهو ما لم نشهده حتى اللحظة مع الأسف الشديد.

أما عن مهمة ردم الهوة بين الـ(أنا) والـ(ذات)، بين ما هو مزيف وما هو حقيقي، فربما ستكون أقرب وأسهل إن نحن نجحنا بتأمل ذواتنا بجرأة أكثر، والتنقيب في تاريخنا الشخصي، وتاريخنا المناطقي، وتاريخنا الانساني على نحو عام. أعتقد جازماً أن الوقت قد حان لخلع الأقنعة.

أما عن مهمة ردم الهوة بين الـ(أنا) والـ(ذات)، بين ما هو مزيف وما هو حقيقي، فربما ستكون أقرب وأسهل إن نحن نجحنا بتأمل ذواتنا بجرأة أكثر

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/DocSamiPersonality.pdf

*** *** ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com

شـــعـــار: انجـازات اربعـــة عشـــرة عامـــا مـــن الكـــدح "

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتـــــــاب السنـــــــوي الرابـــــــع

تحميل الكتاب

- التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية"

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet14Years.pdf

- التحميل من موقع المتجر الالكتروني لـ " مؤسسة العلوم النفسية العربية"

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=296&controller=product&id_lang=3

*** *** ***

اشتراكـــــــات الدعـــــــم في اصدارات الشبكة

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3